الشافعي اديبـــاً

بقلم
حبيب الراوي

بغداد ١٩٦٥

(نشر فى الجزء الثانى من المجلد الخامس والعشرين)

الشافعى أديبًا

بقلم : حبيب الراوى
كلية التحرير

انطبق فى أذهان الناس أن الفقيه يكون زميتا وقورا ، ويقترن هـذا بالابتعاد عن النكتة والنادرة لديهم ، ولكن هذه القاعدة لا تنطبق على الجميع، فان هناك من الفقهاء من اوتي من خفة الروح وظرافة المنطق وبراعة النكتة شيئا غير يسير •

فان روح الظرف والدعابة لم تفارق الكثيرين من الفقهاء الذين ظهروا فى ذلك العصر أو قبله من العصور ، فقد نصح أحدهم ابنه أن يبتعد عن التصوف لانه ثقيل الروح ، وسأل رجل (الشعبي) وهو من مشاهـير الفقهاء :

هل يجوز أن تأكل الذباب ؟ فأجابه : اذا كنت تشتهيه فكله • ودخل رجل على (الشعبى) وكان جالسا مع امرأة ، فقال : أيكما الشعبى ؟ فأشار الشعبى الى المرأة وقال : هذا •

وانه يطول بنا المقام لو أردنا أن نستوفى ما ورد من أقوال للفقهـاء والمتكلمين من هذا القبيل • لقد كان من هؤلاء محمد بن ادريس الشافعى ، صاحب المذهب المعروف فقيها فى الدين وكان أديبا امتاز ببراعـته النادرة وسرعة الخاطر وحضور البديهة ، ومن ذلك انه كانت عنده امرأة يحبها كل الحب ، ولكنها كانت تبدى له الصدود وتظهر الجفاء ، فكان كلما رآهـا أنشد :

ومن البليـــة أن تحب فلا يحبك من تحبـــه

فتقول هى :

ويصـــد عنـــك بوجهه وتلح أنت فلا تغبـــــه(١)

وفى مجلس من مجالسه ، وكان اصحابه ملتفين حوله ، يتطارحـون الحديث فى الفقه ، ويتناقلون أفانين القول ، اذ أقبل رجل وبيده رقعة سلمها الى الشافعى ، فقرأها وابتسم ثم كتب عليها شيئا لم يخبر الحاضرين بمحتواه فتناولها الرجل وانطلق فى طيته ، فقام الربيع بن سليمان يعدو أثره حتى أدركه ، فسأله عن محتوى الرقعة وما كتبه الشافعى على ظهرها ، فاذا فيها :

سل المفتى المكى هل فى تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جنـــاح

وكان جواب الشافعى فى أسفل الرقعة البيت التالى :

أقول معاذ الله أن يذهب التقى تلاصق أكباد بهن جـــراح(٢)

وروى ياقوت فى مكان آخر من كتابه : أن رجلا جاء الى الشافعى برقعة مكتوب فيها :

سل المفتى المكى مـــن آل هاشم اذا اشتد وجد بامرىء كيف يصنع ؟

فكتب الشافعى :

يداوى هـــواه ثم يكتم وجـــده ويصبر فى كل الامـور ويخضع

فأخذها صاحبها ، ثم أعادها مكتوبا عليها :

فكيف يداوى والهـوى قاتل الفتى وفى كل يوم غصـة يتجـــرع

فكتب الشافعى :

فان هـــو لم يصبر على ما أصابـــه فليس له شىء سوى الموت ينفع (٣)

---

(١) آداب الشافعى لابى حاتم الرازى .

(٢) معجم الادباء ١٧/٣٠٦ .

(٣) ياقوت ١٧/٣١٩ .

تلك طرف من نوادر محمد بن ادريس ، الذى بدأ حياته بتعلم الرمى فبرع فيه كل البراعة ، حتى كان يصيب من كل عشرة عشرة (١) ثم اتجه الى العربية وعلومها ، ثم الى الفقه فكان فيه نسيج وحده وواحد عصره . ويبدو انه رأى أن يأخذ العربية عن الاعراب فى البادية وفى هذا الصدد ، يحدث نفسه « ... ثم انى خرجت من مكة فلزمت هذيلا فى البادية ، أتعلم كلامها ، وآخذ طبعها ، وكانت أفصح العرب ، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة ، أرحل برحيلهم وانزل بنزولهم ، فلما رجعت الى مكة جعلت أنشد الاشعار ، واذكر الآداب والاخبار ، وايام العرب فمر بى رجل من الزبيريين من بنى عمى فقال لي : يا أبا عبد الله عزّ عليّ ألا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه ، فتكون سدت ، أهل زمانك ، فقلت : فمن بقي نقصد ؟ فقال لي : مالك بن أنس، سيد المسلمين يومئذ ... » (٢) وذكر ياقوت فى مكان آخر من معجمه حديثا منسوبا الى مصعب بن عبد الله ابن الزبير قريبا مما ذكره الشافعى فى مقالته هذه ، وقد شخص الى العراق بعد أن درس على مالك ، فانقطع الى محمد بن الحسن ثم جاء الى المدينة(٣)

وبعد أن وعي الشافعى الكثير من العلماء والاعراب ، أخذ يدون ما وعاه وما سمعه على العظام والاكتاف ويضعها فى حباب خاصة ، حتى امتلأت عدد من هذه الحباب(٤) .

وقبل أن يتفرغ الشافعى للفقه والحديث ، صار علما فى اللغة وفارسا

---

(١) آداب الشافعى ٢٣ .
(٢) ياقوت ١٣/٢٨٥ .
(٣) حلية الاولياء ٩/٧٣ والتهذيب للنووى ١/٤٦ .
(٤) ياقوت ١٧/٢٨٣ .

مبرزا فيها لا يشق له غبار ، فقد شهد له أبن هشام ، وكان ثقة ، وممن أقاموا صرح العربية ، اذ قال : « ان الشافعي ممن تؤخذ عنه اللغة (١) وانه كان عربي النفس واللسان (٢) » وقال ابن سريج « ما رأيت أحدا أفصح ولا انطق من الشافعي (٣) » .

وفي رواية أخرى انه قرأ شعر هذيل على الشافعي ، وقال أحد الثقات : « طالت مجالستنا للشافعي فما سمعت منه لحنة قط ، ولا كلمة غيرها أحسن منها (٤) » . وقال الشافعي عن نفسه ، في موضوع الحديث عن شعر هذيل : « ... ما رأيت أحدا أعلم بهذا الشأن مني » وكان يجلس في حلقته اذا صلى الصبح فيجيئه أهل القرآن فاذا طلعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر ، فاذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض ، فلا يزالون الى قرب انتصاف النهار ، ثم ينصرف عنهم (٥) وقد قال يونس بن عبد الاعلى : « وكان الشافعي اذا أخذ العربية قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم بالشعر وانشاده ، قلت : هو بهذا أعلم ، واذا تكلم بالفقه قلت بهذا أعلم (٦) » وكتب عبد الرحمن بن مهدي الى الشافعي وهو شاب أن يضع كتابا في معاني القرآن ، ويجمع قبول الاخبار فيه ، وحجة الاجماع وبيان الناسخ والمنسوخ من السنة ، فوضع له كتاب « الرسالة » .

---

(١) وفيات الاعيان ١/٤١١ .
(٢) التوالي لابن نعيم الاستربادي ص ٧٧ .
(٣) المصدر نفسه ص ٥٩ .
(٤) ياقوت ١٧/٣١٢ .
(٥) ياقوت ١٧/٣٠٤ .
(٦) ياقوت ١٧/٣٠٠ .

قال عبدالرحمن : ما اصلى صلاة الا وادعو للشافعى فيهـا ، وعن مصعب انـه خـرج الى اليمن فلقى محمد بن ادريس ، وهو مستحض فى طلب الشعر والنحو والغريب ، قـال : فقلت له : الى كم هـذا ؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك وانصرفت به معى الى المدينة ، الى مالك بن انس واوصيته به ، فما ترك عند مالك الا الاقل ، ولا عند شيخ من مشايخ المدينة الا جمعه ، ثم شخص الى العراق فانقطع الى محمد بن الحسن ، ثم جاء الى المدينة ... »(١) .

لقد كان للشافعى نظرات فى النقد ، ومن هذا ما اورده صاحب الاغانى من أن يزيدا أنشد بعض الابيات فقال الشافعى ، وأشار الى بيتين منهـا ، بانهما مسروقان من شعر الاعشى (٢) .

وقد كان الشافعى معتزا بنفسه اى اعتزاز ، يصونها ان تبتذل ، ويربأ بهـا أن تذال ، وكان يحس قدرته عـلى حل عويص المسـائل ، وكشف غامضها ، والى هذا يشير بقوله :

اذا المشـكلات تصدين لي ... كشفت حقائقهـا بالنظـر
لسـان كشقشقـة الارحبى ... أو كالحسـام اليمانى الذكر
ولست بامعـه الرجـال ... اسـائل هـذا وذاك الخبر
ولـكننى مدره الاصغـرين ... جلاب خـير وفراج شـر

وقريب من هذا انه دخل أحد المساجد ولم تكن عليه الا خرقة ، فلم يأبه به أحد ، فأثار الموقف حفيظته وقال :

عليّ ثياب لو يبـاع جميعهـا ... بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

---

(١) ياقوت ١٧/٢٨٢ .
(٢) الاغانى ٥/١٣٤ .

وفيهن نفسي لو يقاس ببعضها نفوس الورى كانت اجل واكبرا
وما ضر نصل السيف أخلاق غمده اذا كان عضبا اين وجهه فرى (١)

ومن طريف قوله فى تعزية احد اصحابه :

انى اعزيك لا أنى على طمع من الخلود ولكن سنة الدين
فما المعزى بباق بعد صاحبه ولا المعزى وان عاشا الى حين

لقد كان الشافعى كريم النفس ، طاهر الذيل ، سريعا فى الجلى ، لا يتقاعس عن مكرمة ، ولا يتغاضى عن حقوق أصحابه وذويه ، من ذلك ان صاحبا قال له : ان صاحبك فلان عليل ، فقال الشافعى :

الله لقد احسنت الي وايقظتنى الى مكرمة، ودفعت عنى اعتذارا يشوبه الكذب ، ثم انشأ يقول :

ارى راحة للحق عند قضائه ويثقل يوما أن تركت على عمد
وحسبك حظا أن ترى غير كاذب وقولك لم اعلم وذاك من الجهد
ومن يقض حق الجار بعد ابن عمه وصاحبه الادنى على القرب والبعد
يعش سيدا يستعذب الناس ذكره وان نابه حق أتوه على قصد (٢)

وقد جال الشافعى جولات موفقة فى ميدان الحكمة ، وذلك انه قد بلا الحياة بما فيها من خير وشر ، فعجم عودها ، وسبر غورها ، وادرك ما تنطوى عليه من بهرج خادع ، وسراب زائف ، وبرق خلب ، فرأى انه ليس ثمة أحد احق بالثقة من نفسك دون غيرها ، وان كانت لك حاجة فلا تسأل الا معترفا بقدرك .

---

(١) ياقوت ١٧/٣١٩ .
(٢) ياقوت ١٣/٣١٩ .

ما حك جلدك مثل ظفرك فتول انت جميع امرك
واذا بليت بحاجة فاقصد لمعترف بقدرك (١)

ورأى أن افشاء السر الى الصديق انما هو ضياع لذلك السر ، فكيف تبغى من غيرك ان يصون سرا عجزت عن كتمانه ، لذلك فانها الحماقة ان تفشى الاسرار حتى للاصدقاء .

اذا المرء افشى سره لصديقه ودل عليه غيره فهو احمق
اذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فسر الذى اودعته السر أضيق

ورأى الشافعى الاقدار وهى تعبث بالناس ، وان الحياة لا منطق لها فلا تسير على قياس مطرد ، فالحظ هو الذى يقرب البعيد ويبعد القريب ، وهو الذى يملق العاقل ، ويفتح الابواب المغلقة للاحمق ، ومن هنا كان عيش الاحمق رضيا ، وعيش اللبيب بؤسا وشقاءا ، وذلك دليل القضاء .

ان الذى رزق اليسار ولم ينل أجرا ولا حمدا لغير موفق
الجد يدنى كل امر شاسع والجد يفتح كل باب مغلق
فاذا سمعت بان مجدودا حوى عودا فأثمر فى يديه فصدق
واذا سمعت بأن مجذوذا أتى ماء ليشربه فغاض فصدق
لو أن بالحيل الغنى لوجدتنى بنجوم أرجاء السماء تعلقى
ومن الدليل على القضاء وكونه بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق (٣)

والشافعى حين يرى هذا التناقض فى الحياة ، لا يحمله ذلك على الهرب منها كما فعل حكيم المعره ، ولا على الحقد عليها كما فعل المتنبى ، ولكنها تؤدى به الى التسامح والعفو عمن يسيئون اليه ، الذين يغمطون حقه ،

(١)و(٢) الشذرات ١٢/١١ .
(٣) الشذرات ٢/١١ .

قالرجل مؤمن ، ولا يريد « أن يسيء محمدا فى امته »

من نـال منى او علقت بذمتـــه ابرأتـــه لله شـــاكر منتـــــه
أأرى معوق مؤمـن يوم الجـــزا أو أن اسوء محمدا فى امته (١)

وخير ختام نعطر به ذكرى هذا العبقرى تلك الابيات الرائعة التى قالها حين دخل عليه المزنى ، وهو فى مرض موته فسأله كيف اصبحت ؟ قال : اصبحت من الدنيا راحلا ، والاخوان مفارقا ، ولكأس المنية شاربا ، وعلى الله جل ذكره واردا ، والله مـا أدرى روحى تصير الى الجنة ام الى النار ، فاعزيها ، ثم بكى ، وانشأ يقول :

فلمـــا قسا قلبى وضاقت مذاهبى جعلت رجائى نحو عفـــوك سلما
تعاظمنى ذنبى فلمـــا قرنتـــــه بعفوك ربى كان عفوك اعظمـــا
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل تجود وتعفـو منـــة وتكرمـــا
فلولاك لم يقـــدر بابليس عابـد فكيف وقد اغوى صنيعك آدمـــا

والى الشافعى ينسب البيت التالى :ـ

ولولا الشـــعر بالعلماء يـــزرى لـكنت اليوم اشـعر من لبيـــد

وقـــد انطوت صحيفة هـــذا العبقرى سنة ٣٢٧ هـ وكان عمره اربعةً وخمسين عـاما • وبموته هوى علم من اعلام الفكر والادب ، وانهد طود شامخ من دعائم الاسلام ، وانطفأ مصباح طالما اضاء للسارين الدروب •

(١) الشذرات ٢/١١ •